# مستقبل الثقافة فى المجتمع العربى

للدكتور كامل عياد

مقارنة بسيطة ، خاطفة بين مستوى الثقافة المنتشرة اليوم فى البلاد العربية وبين ما كانت عليه قبل نصف قرن تكفى لتكشف لنا عن التطور الكبير فى هذه الناحية من حياتنا . نلاحظ ذلك فى تضخم عدد المثقفين وازدياد معاهد التعليم واتساع حركة التأليف والترجمة والنشر ، وقبل كل شىء ، فى اختلاف مناهج البحث وطرائق التفكير وأساليب التعبير .

إن التطور هنا ، كما فى سير التاريخ عامة ، لا يعنى التقدم المطلق ومن كافة الوجوه . وليس عسيراً أن نأتى بشواهد كثيرة على التأخر فى بعض مظاهر الثقافة . فنرى مثلا أن العناية بتراثنا الدينى والأدبى كانت قبل خمسين سنة أعظم منها اليوم . ونحن لا نجد فى الوقت الحاضر فى حركة الإصلاح الدينى أو دراسة تاريخ العرب والإسلام ما يضاهى دعوة الإمام محمد عبده أومباحث الألوسى وجرجى زيدان . كذلك لا نشاهد الآن انتاجاً خصباً ، قوياً فى الشعر العربى نستطيع مقارنته بما نظمه حافظ ابراهيم وأحمد شوقى والرصافى والزهاوى . ولعل أبرز ناحية تقهقرت فيها الحياة الثقافية هى الصحافة العلمية التى كان ينبغى أن تسير خطوات كبيرة إلى الأمام تبعاً لحاجاتنا المتزايدة . ومهما كانت علة هذا التقهقر فلا يستطيع كل غيور على الثقافة إلا أن يأسف لمدى الانحطاط فى مستوى بعض المجلات العلمية والأدبية العربية التى اشتهرت فى الماضى بالرصانة ونشر المعرفة الصحيحة .

ولكن لا شك أيضاً فى أن التطور الثقافى فى البلاد العربية ، الذى بدأ منذ أكثر من مئة عام ثم ازدادت سرعته فى الأربعين سنة الأخيرة ، قد أدى فى معظم النواحى إلى تقدم ملموس وتكامل محسوس . فقد انتشرت المعارف واتسعت آفاق الفكر وكثر الاختصاص وازدادت المباحث العلمية نضجاً وتحرر



Opeikandil.com

الأدب والفن من قيود التقليد واتجها نحو الإبداع والابتكار . وبالدرجة الأولى يتجلى التطور الثقافى فى اللغة . فقد ارتقت لغة المحادثة بين جمهور الشعب وقطعت شوطاً بعيداً فى طريق التقرب من اللغة الفصحى ، كما أن لغة الكتابة ازدادت بساطة وسهولة ومرونة وأصبحت قريبة من متناول عامة الشعب .

وإذا رأينا بعض المحافظين يأخذون على الكتاب المعاصرين مخالفة «أساليب العرب» فان هذه التهمة واهية لأن أساليب العرب — رغم نزعة التقليد المستحكمة منذ القدم — قد تغيرت فى بحر العصور المختلفة فلا يجوز أن نتمسك بأسلوب عصر معين دون غيره أو أن نحرم على كتاب العصر الحاضر انتهاج أسلوب جديد خاص بهم .

على أن اللغة العربية ، رغم تطورها الحديث ، لا تزال بحاجة إلى التجديد والإصلاح حتى تجارى التقدم الثقافى العام وتساير حاجات العصر فى مصطلحاته الفنية وفى مخترعاته وأساليب تفكيره . .

* * *

لا خلاف فى أن التطور الثقافى الحديث فى العالم العربى كان نتيجة للاحتكاك بالأمم الغربية .

فقد خيم الظلام والجمود على العرب مدة أربعة قرون بعد غارات الصليبيين والمغول والتتر واستيلاء الأتراك على بلادهم . ولكنهم أخذوا يستيقظون فى أوائل القرن التاسع عشر عندما تدهورت الأمبراطورية العثمانية فى طريق الانحطاط والانحلال وقامت الدول الأوروبية تغير على حدودها وتحاول التدخل فى شؤونها الداخلية وتطمع فى الاستيلاء على ممتلكاتها . وقد كانت البلاد العربية فى مقدمة أهداف الاستعمار الإنجليزى والفرنسى بسبب موقعها الجغرافى على طريق المواصلات التجارية العالمية . ولم تكن حملة نابليون على مصر وسوريا سوى مظهر للتنافس بين الاستعماريين فى سبيل السيطرة على هذه الطريق . ومن المعروف أن وجود الفرنسيين فى مصر كان له أثر عميق فى نفوس السكان فانتبهت أفكارهم إلى ما تمتاز به الحضارة الأوروبية من وسائل القوة وشعروا بضرورة الاستفادة من تقدم الغربيين فى العلوم والفنون والصنائع .

وبينما فشلت محاولة السلطان سليم الثالث لتنظيم الجيش التركى على النسق الحديث استطاعت مصر أن تقتبس كثيراً من الأنظمة الأوروبية فى تكوين الجيش والأسطول وتأسيس المعاهد العلمية والصناعية كما بدأت تستعين بالخبراء الأجانب وتوفد البعثات الدراسية إلى بلاد الغرب . إلا أن هذه الحركة قد ضعفت بعد مدة قصيرة وظلت تتعثر على غير هدى ، كذلك المحاولات المتعاقبة التى قام بها فى الدولة العثمانية نفسها السلطان محمود الثانى ثم فؤاد باشا وعالى باشا وأخيراً مدحت باشا لإصلاح الجيش والإدارة الحكومية ومعاهد التعليم بالاقتباس عن الغرب والتى شملت البلاد العربية أيضاً قد اصطدمت بكثير من العراقيل ولم تثمر إلا قليلا .

فى الوقت ذاته كان اهتمام الغربيين بالبلاد العربية آخذاً فى الازدياد . فقد أكثروا من تأسيس القنصليات والوكالات التجارية فى مختلف المدن . وبدأت بضائعهم ومصنوعاتهم تتسرب إلى الأسواق. على أن أهم وسيلة للتغلغل الاستعمارى لجأت إليها الدول الغربية هى البعثات التبشيرية . فان المدارس والمستشفيات التى أنشأتها هذه البعثات كانت تعمل فى كل مكان على إثارة الفتن والاضطرابات بين الطوائف . وقد عمدت المدارس التبشيرية إلى تلقين الناشئين بعض مظاهر الثقافة السطحية ، المحدودة التى لا تمت إلى البيئة الاجتماعية بصلة والتى لا ينتج عنها سوى بلبلة الأفكار واختلاف الآراء . إلا أنها رغم ذلك ساعدت على انتشار معرفة اللغات الأجنبية وبالتالى سهلت الاتصال والاحتكاك بين الشرق والغرب فأصبحت عاملا قوياً فى اطلاع العرب على الثقافة الحديثة .

ثم إن غارة الفرنسيين على الجزائر وتونس ومراكش واحتلال الإنجليز لمصر وغزو الطليان لليبيا وسياسة « التتريك » التى اتبعتها جمعية « الاتحاد والترقى » فى سائر البلاد العربية وما كان يهدد هذه البلاد من أخطار الاستعمار الأوروبى كل ذلك قد نبه العرب إلى ضرورة الكفاح السياسى فى سبيل الاستقلال والسعى لإيقاظ الوعى القومى بنشر الثقافة الحديثة . وكان من الطبيعى أيضاً أن تتجه الأفكار إلى إحياء تراثنا الثقافى القديم والعناية بأمجادنا التاريخية لما فى ذلك من حوافز تلهب النفوس ودوافع تثير الهمم . وقد سبقتنا أمم كثيرة فى هذا السبيل

obeikandi.com

مثل اليونان والصرب والبلغار والطليان والألمان كان يمكننا الاقتداء بها . وفى الحقيقة فان ذكريات الماضى بالإضافة إلى تأثير الثقافة الغربية واستفحال الاضطهاد التركى وإدراك الخطر الاستعمارى – الأوروبى كلها قد لعبت دوراً هاماً فى اندلاع نار الثورة العربية أثناء الحرب العالمية الأولى وقيام الحركات الاستقلالية بعدها فى جميع الأقطار العربية .

ولكن هناك اختلافاً فى الأوضاع والظروف أدى إلى نتائج متباينة . وإذا كنا لا يخامرنا أدنى شك فى أن العرب سيتحررون من كل أثر للاستعمار والنفوذ الأجنبي وسيحققون وحدة بلادهم وسيتقدمون بخطوات سريعة فى طريق الحضارة والمجد ، إلا أنه لابد لنا من إمعان النظر فى أوضاعنا وظروفنا الخاصة حتى نستطيع التغلب على جميع العقبات ونتجنب العثرات ونسرع فى السير إلى الأمام.

لقد استطاعت ألمانيا وإيطاليا تحقيق الاستقلال والوحدة فى القرن التاسع عشر كما استعادتا مكانتهما الدولية بعد الانهيار العسكرى فى الحربين العالميتين لأنهما لم تتخلفا عن بقية الدول الغربية فى النهضة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية إن لم تسبقا غيرهما فى كثير من النواحى . وليس الأمر كذلك مع البلاد العربية . ثم إن موقفهما من تراثهما القديم يختلف أيضاً اختلافاً جوهرياً عن موقفنا نحن العرب تجاه تراثنا . .

* * *

لاحظ العرب منذ أوائل القرن التاسع عشر ما تمتاز به الحضارة الغربية من وسائل القوة المادية وأدركوا بأنهم لن يستطيعوا مقاومة الاستعمار الغربى إلا باصطناع الوسائل ذاتها . من هنا قامت الدعوة فى البلاد العربية إلى ضرورة اقتباس الثقافة الحديثة لأنها أساس النهضة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية . وفى الواقع فان هذه المظاهر تؤلف وحدة متماسكة فى كل حضارة. ولكننا ، مع الأسف ، كثيراً ما ننسى هذه الحقيقة فنهتم مرة باحدى النواحى دون غيرها ونسعى مرة ثانية إلى اقتباس بعضها دون الآخر . بل إننا نحاول أحياناً التفريق بين عناصر الثقافة نفسها فنعتنى تارة بالأدب ونهمل العلم أو نتجه تارة أخرى إلى التعليم النظرى ونغفل عن ارتباطه بالتجارب والتطبيقات العملية . .

إن حركة الاقتباس عن الثقافة الغربية قد ظلت مستمرة في البلاد العربية منذ منتصف القرن التاسع عشر حتّى اليوم دون نظام موحد وخطة مرسومة وأهداف معينة ، واضحة . ويكفى أن نستعرض المؤلفات التى ترجمت إلى اللغة العربية فى هذه المدة الطويلة حتّى تنكشف لنا الفوضى السائدة فى حياتنا الثقافية إذ نلاحظ قلة عدد تلك المؤلفات ، ثم نرى أن كل مترجم ينقل ما يروق له أو يتفق مع آرائه الشخصية أو لا يكلفه كبير عناء أو يعتقد بأنه يلاقى رواجاً لدى الجمهور . وهكذا ظل العرب يجهلون أمهات الكتب التى تمثل الثقافة الغربية فى أصولها واتجاهاتها الأساسية ولم يتعرفوا إلا على بعض المظاهر السطحية والجوانب التافهة من فلسفة الغربيين وطرائق تفكيرهم وعلومهم وآدابهم وفنونهم وأنظمتهم . وأذكر بهذه المناسبة ما سمعته فى أحد دروس المستشرق الألمانى الأستاذ ( بيكر ) إذ أشار إلى عجز العرب عن فهم الحضارة الغربية فاستشهد للبرهان على ذلك بأنه لم يترجم مثلا إلى اللغة العربية من مؤلفات الفيلسوف ( شوبنهاور ) سوى رسالة له فى الطعن بالنساء ربما تعبر عن رأيه الشخصى ولكنها على التأكيد لا تعكس الاتجاه السائد بين الغربيين .

وربما تبدو الفوضى فى حياتنا الثقافية أشد وضوحاً إذا انتقلنا إلى ناحية ثانية كان لاحتكاكنا بالغرب تأثير كبير فيها أيضاً — بالرغم عما فى الأمر من غرابة — وأعنى بذلك إحياء تراثنا الثقافى . فان المستشرقين هم الذين سبقونا إلى جمع المخطوطات العربية القديمة ونشر أهم مؤلفات أجدادنا بمنتهى العناية والتحقيق ثم دراستها بكثير من الاهتمام والتعمق ومعرفة محاسنها وتقدير قيمتها واستخلاص فوائدها . أما نحن فقد اقتصرت جهودنا حتّى عهد قريب على أن ننشر أتفه المؤلفات أو أن نسطو على ما نشره المستشرقون ونعيد طبعه بصورة مشوهة فى الغالب . وإذا كان هذا الوضع قد أخذ يتغير حقاً فى السنوات الأخيرة وأصبحنا نقتدى بالمستشرقين فى حسن الاختيار واتقان الإخراج فاننا لانزال مقصرين فى دراسة محتويات كتبنا القديمة وبيان أثرها فى تطور الثقافة البشرية والاستفادة منها فى كتابة تاريخ بلادنا وحضارتنا . ولإدراك مجال العمل أمامنا فى هذا الحقل أكتفى بالإشارة إلى كتاب المستشرق السويسرى ( آدام ميتز ) عن « الحضارة

الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » أو « عصر النهضة الإسلامية » — كما هو العنوان الأصلى — الذى ترجم إلى العربية قبل سنوات ويستطيع كل قارىء أن يرجع إليه . فانه يكاد لا يحتوى على أى عبارة إلا وهى مأخوذة عن أحد المصادر العربية القديمة ، ومع ذلك فهو يقدم لنا صورة حية ، لم نكن نتخيلها عن مختلف مظاهر الحضارة العربية — الإسلامية . وهذا الكتاب لا يعد شيئاً مذكوراً بالنسبة إلى مؤلفات كبار المستشرقين التى لم تنقل بعد إلى اللغة العربية مثل « الأمبراطورية العربية » لويلها وزن و «تاريخ الحضارة الإسلامية» لفون كريمر و « تاريخ الإسلام فى الشرق والغرب » لآوغوست موللر ثم على الأخص « الدراسات المحمدية » لجولد تسيهير و « تاريخ القرآن » لنولدكه و « حوليات الإسلام » لكايتانى . أليس من المؤلم أننا لا نستطيع أن نذكر إلى جانب أمثال هذه الكتب للمستشرقين أكثر من واحد أو اثنين لعلمائنا المعاصرين ؟

وإذا كنا لا ننكر بأن بعض هؤلاء المستشرقين لم يكونوا يقصدون غير البحث العلمى المجرد عن الأغراض السياسية فلانشك أيضاً فى أن أكثرهم كانوا ومازالوا يخدمون المطامع الاستعمارية . وهم كثيراً ما يعملون على تشويه تاريخنا وتراثنا الثقافى فتنطلى علينا مكائدهم ونسرع إلى ترديد أقوالهم واتباع آرائهم .

لا أريد أن أسترسل هنا فى بيان مطاعن المستشرقين ومغالطاتهم ولكن لابد لى من التعرض إلى ناحية أعتقد بأنها على جانب كبير من الخطورة فى توجيه ثقافتنا الحاضرة ، وإن كان الكثيرون سيخالفوننى بشأنها ، وأعنى بذلك الادعاء بوجود خلاف جوهرى بين الشرق والغرب فى الحضارة والثقافة .

* * *

إن معظم الفلاسفة والمؤرخين يعتبرون البشرية كتلة واحدة وينظرون إلى الثقافة السائدة فى الوقت الحاضر كخلاصة العقل الانسانى ويقولون بأن جميع الأمم قد اشتركت فى تكوين هذه الثقافة مع اختلاف فى مقدار مساهمة كل منها ومدى مسايرته لها حسب الظروف التاريخية والأوضاع الاجتماعية .

ولكن بعد ظهور النظرية العنصرية فى أواخر القرن التاسع عشر قام

بعض الكتاب الاوروبيين ، وبالأخص الألمان ، ينكرون وحدة الحضارة والثقافة البشرية وأخذوا يميزون بين ثقافات كثيرة لكل منها « نفسية » خاصة بها . وأشهر هؤلاء الكتاب هو ( شبنكلر ) الذى أحصى ثمانى حضارات أساسية فى التاريخ وادعى بأنها تختلف بعضها عن الآخر كل الاختلاف فى الثقافة والنظرة إلى الكون والحياة وفى العقائد والتقاليد والعادات وفى الآداب والفنون ، بل فى مفهوم العلوم الرياضية والطبيعية . وبين هذه الحضارات يذكر ( شبنكلر ) الحضارة « العربية » التى تشمل ، حسب رأيه ، البابليين والآشوريين والفينيقيين والآراميين واليهودية والمسيحية والتى بلغت كمالها وتبلورت فى صورتها النهائية بظهور الاسلام وتأسيس الدولة العربية . وهو يذهب إلى أن الصفة المميزة لهذه الحضارة هى « العقيدة السحرية » .

وهذا ما يقصده أيضاً أكثر الكتاب الذين يصفون الثقافات « الشرقية » بأنها « روحانية » . وقد اختلف هؤلاء الكتاب فى تفسير معنى « الروحانية » ففهمها بعضهم على أنها العقيدة الدينية وما لها من أثر فى تطهير النفس وتهذيب الأخلاق واعتبرها آخرون مرادفة للنزعة الصوفية وما يلازمها من الكشف الباطنى والتجرد عن المادة . وهى فى رأى الجميع تستند إلى العاطفة والوجدان وتتعارض مع التفكير العقلى القائم على المشاهدة الحسية والتجربة العملية والنظرة الموضوعية . وعلى كل حال فانما القصد هو إظهار الفرق بين « الغربيين » والشعوب الأخرى ثم دفع هذه الشعوب إلى التمسك بعاداتها وتقاليدها وطرائق تفكيرها القديمة لئلا تقتبس الحضارة الحديثة وتسعى للتحرر من سيطرة الغربيين .

لذلك نرى بعض المستشرقين الذين يعملون فى وزارات الخارجية والمستعمرات ببلادهم يبذلون جهوداً كبيرة فى نشر مؤلفات المتصوفين المسلمين والهنود ودراسة مذاهبهم ثم يصرحون بأنه لا سبيل إلى إنقاذ الحضارة البشرية من التفسخ والانهيار إلا بانتصار « روحانية » الشرق . وقبل سنة جاء إلى الجامعة السورية بدمشق مندوب عن مؤسسة ( روكفلر ) وحدثنا عن أهداف هذه المؤسسة واستعدادها لمساعدة المشاريع الثقافية فى كل البلدان . ولما تكلم بعض الأساتذة عن حاجة الجامعة السورية إلى المخابر والوسائل الفنية أخذ المندوب

الاميريكى يصطنع المعاذير ويعدد الصعوبات فى تدارك الآلات المخبرية ويعلق أمر المساعدة على موافقة مجلس إدارة المؤسسة . على أنه عندما انتقل الحديث بعد برهة إلى التصوف الاسلامى لم يتردد لحظة فى قطع الوعود بالمساعدة إذا تأسس معهد للدراسات يعنى بهذا الموضوع الخطير .

ولنـدرك السبب فى اهتمام الغربيين بالثقافة الشرقيـة الخاصة وجانبها « الروحانى » يجب أن نرجع إلى المباحث التى نشرها بعض رجال السياسة والعلم فى الغرب بعد الحرب العالمية الأولى . فان هؤلاء ، وفى مقدمتهم المستشرق الهوللاندى المشهور ( سنوك هورغرونيه ) ، قدعللوا الثورات والاضطرابات التى نشبت إذ ذاك فى المستعمرات بأنها نتيجة لاقتباس الثقافة الغربية من قبل الشرقيين . وقد صرح المستشرق المذكور بأن قادة الحركة الثورية الا ستقلالية فى ( اندونيسيا ) هم من الذين درسوا فى جامعة ( ليدن ) بهولندا . ولذلك نصح حكومة بلاده بالتوقف عن ايفاد البعثات من ( اندونيسيا ) إلى الغرب والاستعاضة عن ذلك بتأسيس جامعة للأندونيسيين فى بلادهم تعنى بالثقافة الشرقية .

وقد سبق الانجليز غيرهم إلى اتباع هذه السياسة فى الهند ومصر . وكانت فرنسا قد اندفعت وراء سياسة الافناء فى الجزائر وتونس لأن هذين القطرين قريبان من بلادها يمكن للفرنسيين الهجرة اليهما واحتلال مكان سكانهما القليلين أو ادماج قسم منهم فى المجموع الفرنسى . ولذلك عمـد الفرنسيون إلى نشر لغتهم وبعض مظاهر ثقافتهم بين هؤلاء . ولكن بعد اتساع مستعمرات فرنسا ومناطق نفوذها أخذ رجال السياسة فيها يدعون إلى الاقتداء بالانكليز والهوللانديين . وقد لمسنا ذلك عند تأسيس كلية الآداب القديمة فى دمشق سنة ١٩٣٣ إذ حضر من باريس أحد المستشرقين المشهورين للاشتراك فى وضع المنهاج فدافع عن لزوم العناية بالبلاغة والبديع ومذاهب النحويين بينما عارض تدريس الأدب المقارن وطرائق النقد الحديث وفن القصة .

* * *

لا يتسع المجال هنا للبحث فى حقيقة « الروحانية » والمادية ، وفى الاختلاف المزعوم بين الشرق والغرب ، بل يكفى أن نتساءل :

ألم يصف بعض المستشرقين الشعوب السامية عامة والعرب خاصة بأنهم ماديون ، واقعيون وأن خيالهم ضيق ، محدود وأنهم قد اقتبسوا النزعة الصوفية عن الهنود ؟ ثم ألا نجد فى تاريخ اليونان وفى تاريخ الأمم الأوروبية عصوراً سادت فيها العقيدة الدينية والنزعة الصوفية ؟ فلماذا لم يمنعها ذلك من الانتقال إلى عصور أخرى سيطر فيها الاتجاه العقلى والبحث العلمى والنظرة المـــادية ؟ ثم ماذا نقصد بالشرق والغرب وأين هى الحدود بينهما ؟ ثم أليس هناك فروق ظاهرة بين الثقافة الانجلو – سكسونية والثقافة اللاتينية ؟ وهل يمكن أن نقارن « العقلية » الألمـــانية بالعقلية الفرنسية ؟ وإذا نظرنا إلى الاسبان والطليان فهل نجدهم فى المزاج والعاطفة والتفكير أقرب إلى الاسكنديناويين والانكليز أم إلى المصريين واللبنانيين والسوريين ؟ وهل حال وجود اليابان فى أقصى الشرق من أن يقتبس أهلها الحضارة والثقافة «الغربية» ؟ وأخيراً ألم تنتشر الحضارة المصرية القديمة فى عهود ازدهارها فى أكثر أنحاء المعمورة ومثلها الحضارة اليونانية وبعدهما الحضارة العربية – الاسلامية فاستفادت منها كلها سائر الشعوب وساعدت بذلك على تقدم البشرية كافة ؟ فلماذا يراد الآن حصر الثقافة الحديثة بالأمم «الغربية» ويطلب إلى الشعوب الأخرى أن تتمسك بثقافاتها القديمة ؟ ألم تستمد الثقافة السائدة اليوم فى الغرب أكثر عناصرها من اليونانيين والصينيين والعرب ؟

إذا أمعنا النظر فى هذه الأسئلة وأمثالها فلابد لنا من الاعتراف بأن تقاليدنا لا تتعارض مع اقتباس الثقافة الحديثة السائدة فى الغرب . وفى الحقيقة إذا تركنا جانباً فئة المحافظين فى بعض الأقطار العربية – وهى فئة قد أصبحت لحسن الحظ ، قليلة العدد – فاننا لا نجد اليوم بيننا من ينكر ضرورة هذا الاقتباس وإنما هناك فئة ، تسمى نفسها بالمعتدلة ، تريد أن يقتصر الاقتباس على محاسن الحضارة الغربية وعلى تلك النواحى من ثقافتها التى تتلاءم مع خصائصنا وتقاليدنا وعاداتنا . ونقطة الضعف فى هذا الرأى هى الصعوبة فى تحديد الصفات والتقاليد والعادات التى نختص بها ويجب أن نحافظ عليها ثم الاختلاف حول المعيار الذى يميز المحاسن من المساوئ . ومهما كان الأمر يحسن بنا عند الكلام على تراثنا الثقافى وعلى عاداتنا وتقاليدنا أن نرجع إلى أصولها التاريخية

ونلاحظ الظروف التي تكونت فيها والتقلبات التي طرأت عليها ثم أن نسأل أنفسنا دوماً : هل يجب الاحتفاظ بكل ما انتقل إلينا عن الماضي ؟ وهل يكفي أن يستمر بعض التقاليد والعادات مدة عصر أو عشرة عصور حتى تصبح جزءاً لا ينفصل عن تراثنا ينبغي التمسك به ولو تبدلت الظروف التي دعت إليه أو رغم أنه كان محصول عهود الانحطاط والسيطرة الأجنبية ؟ هنا مثلا مخلفات كثيرة من العهد التركي في جميع البلاد العربية تغلغلت في العادات والتقاليد وفي اللغة وأنظمة الحكومة والمدارس، فهل نتمسك بها لمجرد إنها تعكس حقبة معينة من التاريخ ولو كانت لا تتلاءم مع أوضاعنا الحاضرة ؟

إننا جميعاً من محافظين ومعتدلين ومجددين نفاخر ونعتز بما اتصفت به الثقافة العربية في عهود ازدهارها من المرونة والقدرة على التكيف واتساع الآفاق ومجاراة سنة التطور . وفي الحقيقة فقد سارع أجدادنا إلى الاقتباس عن كافة الأمم على أوسع مقياس . هكذا اقتبسوا أنظمة الادارة والمالية وآداب السلطان وفنون المعمارى والموسيقى والنقش عن الفرس والبيزنطيين ثم أساليب الري والزراعة عن الأنباط والحساب عن الهنود وصناعتي الورق والخزف عن الصينيين كما رجعوا إلى الكتب اليونانية القديمة ليأخذوا عنها الطب والعلوم الرياضية والطبيعية والفلسفة . وهم لم يحجموا عن دراسة العقائد والمذاهب والمبادئ المختلفة كاليهودية والمسيحية والافلاطونية الحديثة والمانوية والمزدكية والصوفية ومناقشتها والتأثر ببعض الأفكار والتيارات السائدة فيها . وإذا استعرضنا المراحل التي اجتازتها حركة الاقتباس في تلك العهود يتبين لنا أنها كانت تساير تطور المجتمع وازدياد حاجاته . فقد بدأت بالأمور العملية الضرورية كتنظيم الدواوين والبريد ثم الطب والحساب والهندسة وبعدها الصناعات والفنون وأخيراً العلوم والفلسفة . وهذا هو السير الطبيعي لتطور الثقافة البشرية . فالعقل الانساني لم يكن في الأساس ، سوى آلة تستخدم للنجاح في معترك الحياة . وهو قد كان في بادئ الأمر ، مثل المنقار لدى الطير ، وسيلة تساعد الانسان على اكتساب معيشته . والأفكار الأولى عند البشر إنما تكونت كردود فعل للحاجات المباشرة ونتيجة لكثير من المحاولات والتجارب والأخطاء في سبيل

مؤالفة البيئة . على أنه بعد تقدم المجتمعات البشرية واحتكاك بعضها بالآخر نرى الأفكار تكتسب كياناً ذاتياً وتستقل عن الأشخاص الذين توصلوا اليها بالتجربة وتصبح قادرة بدورها على التأثير فى الحياة ، بل إنها تستطيع خلق حياة جديدة . والشرط الأساسى لتأثير الأفكار هو أن تكون صوراً تعبر عن حاجات حقيقية فى المجتمع . وبدون ذلك تفقد قوتها المحركة وتصبح سبباً للاضطراب والفوضى أو الجمود والتأخر .

ثم إن الثقافة العربية قد كان لها تأثير كبير فى نشأة الحضارة الحديثة . فان عهد النهضة فى أوروبا كان نتيجة مباشرة للاحتكاك بين الاوروبيين والعرب فى الأندلس وصقلية وأثناء الحروب الصليبية . يقول المؤرخ السويسرى ( بورخاردت ) صاحب الكتاب المشهور عن « عصر الاحياء فى إيطاليا » إن أول أوروبى حديث هو ( فريدريك الثانى ) ملك النورمانديين فى صقلية وجنوبى إيطاليا . وقد كان هذا الملك وابنه ( مانفريد ) يتقنان اللغة العربية ويفضلانها فى المحادثة . وكانت اللغة السائدة فى البلاط ودواوين الحكومة والمدارس هى العربية . وكان أكثر رجال الدولة وأساتذة الجامعات من العرب . وفى ذلك العهد تمت ترجمة كثير من الكتب العربية إلى اللاتينية . وقد بلغ تعصب الملك فريدريك للعلوم والآداب والفنون العربية درجة اضطر معها المجمع الدينى فى ( ليون ) سنة ١٢٤٥ إلى حرمانه من الغفران بتهمة الالحاد واتباع تقاليد « الكفار » وعاداتهم . ولم تمض على ذلك عشرات من السنين حتى كتب الفيلسوف الانجليزى ( روجر باقون ) يقول : « الفلسفة مستمدة من العربية . فاللاتينى على هذا الاعتبار لا يستطيع أن يفهم الكتب المقدسة والفلسفة إلا إذا عرف اللغة التى نقلت عنها » .

ومن المعروف كيف اقتبس الاوربيون فى العصور التالية العلوم الرياضية وبالأخص الفلك والجبر ثم الطبيعيات والطب والفلسفة عن الكتب العربية وكيف ظلت مؤلفات أبى بكر الرازى وابن سينا وابن رشد وابن الهيثم وأبى القاسم الزهراوى تدرس فى الجامعات الأوروبية حتى القرنين

السادس عشر والسابع عشر . كذلك انتقل إلى أوروبا التصوف الاسلامى والفن المعمارى العربى وكثير من الصناعات .والموسيقى الاسبانية وعلى الأخص أناشيدها الشعبية لا يمكن فهمها دون الرجوع إلى الموسيقى العربية فى الأندلس. ولم يقتصر تأثير الأدب العربى فى الغرب على نشأة الشعر الغنائى فى جنوب فرنسا وعلى ( الكوميديا الآلهية ) لدانتى وعلى قصص ( بوكاشيو ) و(سرفانتيس) بل تعداه إلى مؤلفات ( جوته ) و ( روكرت ) فى أول القرن التاسع عشر أيضاً .

* * *

والآن لنتأمل حالة البلاد العربية فى الوقت الحاضر وعلاقتها بالعالم .

إن أول شيء يتبادر إلى الذهن هو الفرق بين وضع العرب الحالى ووضعهم عند اقتباسهم الثقافات الأجنبية فى الماضى. وأعنى بذلك أننا اليوم مستضعفون وأن القسم الأكبر من بلادنا ما زال خاضعاً للاحتلال أو النفوذ الأجنبى خلافاً لأجدادنا الذين كانوا فاتحين ومسيطرين .

ولهذا الفرق تأثير عميق من الوجهة النفسية . فان الأخطار التى تهدد كياننا القومى تدفعنا بطبيعة الحال إلى التمسك بعاداتنا وتقاليدنا وإلى الحذر من ثقافة الغرب .

ثم نلاحظ ثانياً : أننا على العكس من أجدادنا ، نواجه العالم الحديث ونحن أصحاب مجد عظيم ولكنه غابر وتراث ثقافى غنى ولكنه قديم . وهذا يمكن أن يصبح حافزاً ومشجعاً على النهوض والتقدم ولكن من المحتمل أيضاً أن يكون عبئاً ثقيلا يعوقنا عن السير بخطوات سريعة .

ويتبين لنا ثالثاً : أن الثقافات التى أقدم أجدادنا العرب على اقتباسها ، وعلى الأخص الثقافة اليونانية ، كانت قديمة ، ميتة ، منفصلة عن المجتمع الذى نشأت فيه وازدهرت ، فى حين أن الثقافة الحديثة التى نريد اقتباسها لا تزال فى دور النمو والتكامل ، تتطور وتتقدم بخطوات جبارة فى مجتمع نشيط متحرك وتزداد كل يوم اتساعاً وتعقيداً .

حقاً إننا نعيش فى عصر لم يسبق له مثيل فى التاريخ من حيث سيطرة الصناعة الآلية وتقدم وسائل النقل والمواصلات وانتشار المخترعات الحديثة حتى تقاربت المسافات وأصبح العالم كله كتلة واحدة ، متماسكة . وقد تشابكت مصالح الأمم وارتبطت مقدراتها بعضها ببعض ولم يعد فى استطاعة واحدة منها أن تظل فى عزلة عن غيرها .

فى هذا العالم يسود التنافس والتناحر ولا سبيل للنجاح والبقاء فيه إلا للأقوياء الذين يتسلحون بأحدث وسائل الكفاح من علم وصناعة ودعاية وتنظيم . إن جميع الأمور فى هذا العالم تتطور بسرعة مدهشة وقافلة الشعوب تسير بلا توقف وكل من يتأخر عن الركب لا يأمن الهلاك .

كل هذا تترتب عليه نتائج خطيرة أهمها أننا لا نستطيع اختيار وسائل العيش والكفاح كما نشاء ، بل سنضطر إلى اتباع وجهة مفروضة علينا فرضاً .

والواقع هو أنه ، بينما كنا فى الخمسين سنة الأخيرة نتجادل حول موقفنا من الثقافة الحديثة ، كانت حضارة الغرب قد اجتاحت بلادنا بصناعتها وأنظمتها ومذاهبها وانتشرت بيننا ثقافتها فى مختلف مظاهرها سواء باختيارنا أو رغم إرادتنا. وقد تطورت حياتنا العامة فى هذه المدة تطوراً شاملا عميقاً لم نكن لنتصور إمكان حدوثه بعد أجيال عديدة .

يتجلى ذلك قبل كل شيء فى استخدام الآلات والمخترعات الحديثة وفى طراز البناء واتساع المدن وتنظيمها وفى جهاز الدولة وأساليب الحكم وفى الأعمال التجارية وطرائق التدريس وفى كيان الأسرة ومكانة المرأة والعلاقات الاجتماعية عامة . وبفضل وسائل النقل والمواصلات العصرية تسرب الكثير من مظاهر هذا التطور إلى الريف نفسه وأخذ يغير معالمه التى ظل محتفظاً بها منذ آلاف السنين . وفى جميع البلدان العربية نشاهد هجرة القرويين إلى المدن الكبيرة والمراكز الصناعية واندماجهم فى طبقة العمال الناشئة التى يزداد الوعى والتكتل والتنظيم بين صفوفها . ولاشك فى أن أهم انقلاب اجتماعى هو انهيار الاقطاعية فى أكثر البلاد العربية وقيام الجماهير الشعبية للمطالبة بحقوقها ورفع مستوى معيشتها وتحسين أوضاعها عامة . وقد أصبحت بلادنا

تشغل مكاناً بارزاً فى السياسة الدولية والصراع العالمى بسبب موقعها الحربى وكنوزها من النفط .

والمشكلة التى تجابهنا الآن ليست أن نبحث ونتناقش فيما إذا كان هذا التطور خيراً أم شراً وأن نقابله بالاستحسان أو الاستهجان وإنما المشكلة هى : ماذا يجب أن نعمل للسيطرة على الأوضاع الجديدة وكيف نستطيع النجاح فى معترك الحياة العصرية ؟

لاشك فى أن أول واجب تفرضه علينا الظروف الحاضرة هو السعى إلى زيادة الانتاج وتنمية الثروة العامة لمجابهة تكاثر السكان المطرد وتلبية الحاجات الحضارية الجديدة وتهيئة وسائل القوة الضرورية . وهذا يقتضى تركيز الجهود لاستثمار مواردنا الزراعية . ثم لابد من تأسيس صناعات تعتمد على المحصولات الزراعية وصناعات خفيفة أخرى يسهل تدارك موادها الأولية. كذلك لا غنى للبلاد العربية عن إنشاء المصانع الحربية لمختلف الأسلحة والذخائر .

هذه الأمور كلها تحتاج إلى المعرفة العلمية والاختصاص الفنى وإعداد العمال المساهرين والمراقبين الصالحين ، كما أن نجاحها يتوقف على تنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . فان التنظيم أصبح ضرورة لا مناص عنها فى المجتمع الحديث . ونقصد بالتنظيم هنا ذلك الذى تقوم به الحكومات على مقياس واسع يشمل جميع نواحى الحياة العامة .

لقد انقضى العهد الذى كان الناس يرددون فيه القول مع الفيلسوف الانجليزى ( جون سيتوارت مل ) بأن مهمة الحكومات يجب أن تقتصر على الحراسة فتدافع عن الحدود وتمنع اعتداء الأفراد بعضهم على بعض. كما تبدد الوهم بأن قوانين الاقتصاد ولاسيما المنافسة الحرة كفيلة وحدها بتأمين الانسجام بين المصالح الخاصة والخير العام . فان الأزمات والاضطرابات المتوالية قد دفعت الحكومات إلى التدخل فى الحياة الاقتصادية إما لحماية الصناعة الوطنية أو القيام بالمشاريع الكبرى الحيوية أو لمكافحة الاحتكار ومراقبة الأسعار وتحديد الأجور وتوفير العمل للعاطلين . ثم ازداد هذا التدخل أثناء الحربين العالميتين

فاضطرت جميع الحكومات إلى الأخذ بمبدأ الاقتصاد الموجه . ولم يعد أحد يجهل بأنه لا سبيل إلى حل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية إلا عن طريق التنظيم والتصميم ووضع المناهج البعيدة المدى التى تحدد الأهداف وترتب المشاريع حسب الأهمية وتعين مراحل التنفيذ وتهيء وسائله .

وكان طبيعياً أن يشمل التنظيم شؤون التربية والتعليم والثقافة أيضاً لما لها من التأثير فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية . ونرى الحكومات الحديثة تعنى منذ مدة طويلة بانتهاج « سياسة تعليمية » واضحة ، معينة كما أخذت ترصد الأموال فى الميزانية العامة لمختلف الأهداف والمؤسسات الثقافية من معاهد علمية وفنية ومتاحف ومعارض ودور التمثيل والاذاعة والسينما . على أن ما تنفقه أكثر الحكومات فى هذا السبيل ما زال قليلا جداً لا يتناسب مع المكانة التى يجب أن تنالها الثقافة . ورغم أن الحكومات تحرص على توجيه المؤسسات الثقافية ومراقبتها إلا أن ذلك يتم فى الغالب بصورة هزيلة مضطربة ودون أى صلة بالتنظيم الاقتصادى والاجتماعى .

ومادام بحثنا يدور حول مستقبل الثقافة فى المجتمع العربى فمن الضرورى أن نحاول توضيح هذه الصلة وبيان ماهية الثقافة وتأثيرها فى الحياة العامة والنهضة القومية .

* * *

الثقافة اصطلاح جديد فى اللغة العربية ، نستعمله مقابل كلمة (Culture) المشتقة من اللاتينية والتى تفيد فى الأصل الحرث وعمارة الأرض وهى لم تكتسب المعنى المقصود بها الآن فى الفرنسية وأكثر اللغات الأوروبية إلا فى العصور الحديثة . أما فى اللغة الألمانية فكلمة (Kultur) إنما تطلق على الناحية المعنوية من الحضارة للتفريق بينها وبين المظاهر المادية والتنظيمات المدنية التى تسمى (Zivilisation) . ويستخدم الألمان كلمة أخرى لما نقصده بالثقافة هى : (Bildung) التى تفيد : التكوين ( أى إعطاء الشيء صورته وهيئته ) . وهذا قريب من مفهوم ( التثقيف ) فى العربية أى تشذيب الأغصان وتقويمها ثم بطريق المجاز تقويم العقل وصقله .

للثقافة مدلول واسع يشمل العلوم والآداب والفنون واللغة والعقائدوالعادات والتقاليد والأفكار والمؤسسات والأنظمة وأساليب التربية والتعليم وضروب التسلية والمتعة وكل ما يوجه سلوك الأفراد فى المجتمع وينظم علاقات بعضهم ببعض ويساعدهم على التعبير عن حاجاتهم وخيالاتهم ورغباتهم وآرائهم .

ولكنها أحياناً يختصر مدلولها على الصنوف العليا من ألوان التحصيل والتهذيب التى تتمتع بها نخبة ممتازة هى طبقة « المتعلمين » . ويبدو ذلك واضحاً فى التمييز بين « الثقافة » على الاطلاق وبين « الثقافة الشعبية » .

وعلى كل حال فان الثقافة ، فى الأساس ، ظاهرة تاريخية — اجتماعية . إنها ليست مجردة عن الزمان والمكان ، بل تمثل دوماً مرحلة معينة من تطور المجتمعات البشرية . ومظاهر الثقافة فى مجموعها إنما تعبر عن أسلوب الحياة فى بيئة اجتماعية معينة . ولذلك تختلف العناصر المسيطرة على الثقافة حسب الظروف التاريخية والأوضاع الاجتماعية ، فتبرز أحياناً الناحية العلمية وأحياناً الناحية الأدبية أو الفنية وتارة تسود العقيدة الدينية وتارة أخرى النزعة المادية .

والثقافة تنتقل من جيل إلى آخر عن طريق التربية والتعليم وبواسطة التقليد والايحاء فتتبدل عناصرها وتتطور بصورة بطيئة أو سريعة وتتجدد بما يحدث فى المجتمع نفسه من اكتشافات واختراعات أو بما يقتبسه عن المجتمعات الأخرى . وهكذا تصبح الثقافة تراثاً مشتركاً تساهم فيه الأجيال المتعاقبة ويربط بين الماضى والمستقبل فهو محصول التجارب السابقة وأساس البناء للجهود التالية .

والثقافة كمجموع التجارب والجهود المشتركة تساعد أفراد المجتمع على التفاهم والعيش معاً وتمكنهم من تحقيق الانسجام والاتساق بين ما هو داخلى فى أنفسهم وما هو خارجى من بيئتهم ، بين حياتهم الباطنية وسلوكهم مع غيرهم . وبذلك تقوم الثقافة بوظيفة اجتماعية هامة فتؤدى إلى تماسك المجتمع وتضامنه .

إن هنالك علاقة وثيقة بين الثقافة والحياة الاجتماعية . وربما كان الأصح أن لا نفصل إحداهما عن الأخرى ، لأن الثقافة ليست فى الحقيقة سوى

مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية ومرآة تعكس القوى والتيارات السائدة فيها . فجميع التقلبات التي تحدث فى كيان المجتمع تؤثر بدورها فى الحياة الثقافية . هكذا نرى أن الانتاج الثقافى ومدى الاستفادة من هذا الانتاج ثم كيفية تكوين الصفوة الممتازة وجمهرة المثقفين – كل ذلك يتوقف على توفر شروط اجتماعية معينة . فإذا بحثنا مثلا فى مستوى الثقافة الذى يمكن أن يبلغه الأفراد ظهر لنا بأنه يتناسب مع درجة تقدم المجتمع الذى يعيشون فيه . لذلك لا يمكن أن نتصور قيام عالم كبير فى الطبيعيات أوالهندسة أو الجغرافيا ضمن جماعة إبتدائية . ولنأخذ مثالا آخر ما يلاحظ من قلة الابداع أو انعدامه بالمرة فى بعض العصور من تاريخ الأمم . فهذه الظاهرة لا تدل على أن تبدلا فجائياً قد طرأ على مواهب البشر . ولا يفيدنا شيئاً القول بأن الكفاءة والنبوغ من أسرار الطبيعة التى لا يدركها العقل . وإنما يجب أن نحاول تعليل هذه الظاهرة بالكشف عن العوامل الاجتماعية التى نشأت عنها . حينئذ يتبين لنا أن ازدهار الثقافة وتقدمها يتوقفان على وجود فئة خاصة من أفراد المجتمع تستطيع الانصراف إلى الدرس والبحث والمشاهدة والتأمل هى ما يسمونه بالصفوة أو النخبة الممتازة. ومهمة هذه الفئة هى أن تستفيد من الطاقة النفسية الزائدة التى لا يستنفدها المجتمع فى كفاحه اليومى فى سبيل البقاء فتهيأ لها أسباب التسامى وذلك باثارة الميول الفطرية لدى الجمهور إلى المعرفة والتأمل الباطنى وتذوق الجمال والتعبير عن الذات . هذه الفئة من طبيعتها أن تنقلب إلى طبقة ممتازة فى المجتمع . على أنها إذا أصبحت مقفلة وصارت تتوارث الثقافة وتحتكرها ، كما كانت الحال مع طبقة الكهان فى المجتمعات القديمة ، فلابد أن ينتهى بها الأمر إلى الجمود والتفسخ . وبالعكس فانها تزداد نشاطاً وخصباً عند ما تكون مفتوحة لأصحاب المواهب من جميع الطبقات – ولكن على شرط أن تظل فى الوقت ذاته محدودة نسبيا لتستطيع المحافظة على صفتها الممتازة والقيام بوظيفة القيادة والارشاد . أما إذا تدفقت عليها سيول من العناصر الجديدة وانقسمت إلى كتل كثيرة وتجاوز عددها حداً معيناً فانها تطغى بعضها على بعض وتتشتت جهودها وتفقد جميعها صفة القيادة وتعجز عن القيام بتأثير عميق فى المجتمع كله . وعندئذ فان الميول والنزعات والدوافع الكامنة فى الجماهير لا تجد من يهذبها ويتسامى بها

فتتحول إلى شهوات ونزوات واندفاعات عابرة وإلى عقد واضطرابات نفسية متأصلة تتطلب على الدوام إحساسات متجددة ، متنوعة تتعاقب سريعاً وتزول دون أن تترك أثراً . وقد أصبحت العواصم الحديثة تزدخر بمثل هذه الجماهير المتعطشة إلى وسائل التسلية والتخدير والتمويه وصار المحترفون للثقافة لا يهمهم إلا إرضاء هذه الجماهير يقدمون لها ما تشتهى من زخرف وبهرج . وإذا رأينا بعض المخلصين للثقافة يحاولون نشر المعرفة الصحيحة وتنمية الذوق السليم فان جهودهم لا يمكن أن تثمر كثيراً لفقدان جمهور معين ، ثابت يتبع توجيههم باستمرار . وقد بدأنا نشاهد فى البلاد العربية مثل هذه الظواهر التى تهدد مستقبل الثقافة . ولن نستطيع تجنب الأخطار المداهمة إلا عن طريق تنظيم الثقافة والمجتمع معاً .

* * *

إن الرأى العام فى جميع البلدان يحصر كل اهتمامه حول الأحداث السياسية والعلاقات الدولية لما يلمسه من تأثيرها فى أمور المعيشة والأمن . أما الشؤون الثقافية فانه لا يكترث بها كثيراً — رغم تقديره لقيمتها واعترافه بأنها الدعامة الأساسية فى بناء الحضارة — لأنه قد اعتاد أن ينظر إليها كموضوع مستقل ، قائم بذاته ولا علاقة له بمشاكل الحياة الاقتصادية والاجتماعية .

ومن الغريب أن هذه النظرة الخاطئة مازالت شائعة بين رجال العلم أيضاً بل لعلها بين العلماء وغيرهم من المثقفين أكثر انتشاراً مما لدى جمهور الشعب . فان ازدياد تقسيم العمل وقيام مؤسسات خاصة تعنى بالثقافة وانقطاع الصفوة الممتازة فى عهود السلم والاستقرار إلى الانتاج الفكرى ، الذى لا يخلو من بواعث ذاتية — كل ذلك مما يجعل المثقفين يغفلون عن الصلة الوثيقة بين الثقافة والمجتمع . وإذا رجعنا إلى التاريخ نرى الصفوة الممتازة فى المجتمعات الطبقية تحتكر الثقافة كوسيلة لنيل الجاه وكسب العيش وتسعى إلى الاحتفاظ بها كعالم مستقل تحيطه بالأسرار وتعزله عن جمهور الشعب . ثم يقوم الحكام فيقربون إليهم هذه الصفوة الممتازة ويشملونها بالعطف والرعاية والعطايا السخية فى سبيل استخدامها للسيطرة على عقول المحكومين وعواطفهم . وفى الواقع

فانها كثيراً ما تتولى الدفاع عن الآراء والمبادىء التى تبرر الأنظمة السائدة ولو كانت تتعارض مع ضرورات التطور الاجتماعى وتخالف الحقائق العلمية ، كما كما كانت الحال مثلا مع فلاسفة اليونان والرومان الذين ادعوا بأن الرق من مقتضيات قوانين الطبيعة . وكان أفلاطون خاصة ينصح الحكام باستخدام الأساطير وغيرها من الأكاذيب كوسيلة للسيطرة .

كذلك يجب الملاحظة بأن الفكر إذا بلغ درجة كافية من التطور يصبح قادراً على أن يتصور عوالم خيالية يعيش فيها وينعزل عن محيطه . هكذا نرى الطبقة المتوسطة بألمـــانيا فى أواخر القرن الثامن عشر ، عندما فشلت فى محاولتها لقلب الأوضاع السياسية والاجتماعية ، قد اضطرت إلى الانكماش على نفسها واتجهت إلى الذكريات التاريخية — المندثرة والنظريات المثالية — الخيالية وخلقت من الحياة الثقافية عالمـــاً مستقلا تنقطع فيه إلى أحلامها .

وأخيراً فان من طبيعة التفكير المجرد أن يفصل بين محتوى الثقافة وصورتها بين مادتها وشكلها أى بين التراث الفكرى والأدبى والفنى من جهة ، وبين الأثر النفسى الذى ينشأ عن التربية والتعليم من جهة ثانية . وبما أن محتوى الثقافة يتجسد فى آثار مادية فمن السهل أن يجرد عن المجتمع الذى أبدعه وعن الظروف التى نشأ فيها وأن ينتقل إلى مجتمع آخر .

ونحن نشاهد الناس يقصدون بالثقافة فى الغالب هذا المحتوى ويطلقون صفة « المثقف » على كل شخص يحصل على كل قسط من المعلومات ، ناسين أن هذه المعلومات لا قيمة ثقافية لها إلا بما تتركه من أثر فى تفكير الشخص وقدرته على الابداع وعلاقته بالمجتمع الذى يعيش فيه .

لاشك فى أن محتوى الثقافة لا يخلو من قيمة ذاتية أيضاً . ولكن جوهر الثقافة إنما هو الأثر الذى تتركه فى النفس والصورة التى تسبغها على الشخصية . والغاية من الثقافة ليست سوى تنمية الميول والمواهب وإيقاظ الحياة الباطنية وتهذيب العواطف وتقويم العقل وتقوية الارادة وتكوين الشخصية . وكل ذلك يتطلب اكتساب مادة الثقافة وتمثيل محتواها . وهكذا فالصورة والمـــادة مرتبطتان . ولا سبيل إلى الكمال إلا بالانسجام بينهما ، كما هو الأمر فى روائع

الفن والأدب التى تتجلى قيمتها البديعية فى الناحية الشكلية ولكن على شرط أن يكون الشكل منسجماً مع المادة أى مع الموضوع الذى يعبر عنه لأن لكل موضوع صورة باطنية تناسبه والشكل الخارجى إنما ينبئ عن هذه العلاقة.

* * *

إن العوامل المختلفة التى أشرنا إلى بعضها قد أدت إلى تشويه مفهوم الثقافة فصار الناس يفصلون بين الثقافة والحياة الواقعية ويعتبرون الثقافة من المظاهر الكمالية كأنها ليست سوى حلية للزينة . ولما كانت كل زينة تخفى ما تحتها فانها تصبح وسيلة للغش والتزييف ويمكن تشبيهها بالوشم الذى إنما يشوه جسم الانسان . وفى الحقيقة فان هذه الثقافة المزيفة قد أصيبت بالشلل وأصبحت عقيمة ، محكوم عليها بالموت .

وقد نشأ عن المفهوم الخاطئ للثقافة كثير من النظريات الفاسدة والاتجاهات المضرة فى العلم والأدب والفن وفى التربية والتعليم .

نذكر مثلا نظرية « الفن للفن » التى ما زال البعض ينساقون معها رغم الانتقادات العنيفة التى كشفت عن فسادها . فالتاريخ يبرهن لنا على أن الفن كان دوماً سلاحاً قوياً فى خدمة الآلهة والملوك والحكومات — ولكن أيضاً فى أيدى الثوار المدافعين عن الفلاحين والعمال وعامة الشعب . والفن الذى لا يعبر عن حياة المجتمع إنما يستخدم — سواء بصورة شعورية أو لاشعورية — للتضليل والتخدير . وإذا رأينا بعض الشعراء يتبجحون بالسمو عن العالم وعن مشاغل الناس فليس ذلك سوى دليل على العجز . فالشعراء أيضاً لا يعيشون فى الأثير الطلق ، إنهم أبناء عصرهم ومجتمعهم ، بل يجب أن يكونوا ألصق من غيرهم بهذا المجتمع وأقدر من الآخرين على إدراك هذا العصر . ليس من اللازم أن يشتغلوا بالسياسة ، بل من الضرورى أن لاينخرطوا فى السياسة بمعناها الضيق حتى يستطيعوا الإحاطة بكل ما يجرى حولهم . وليس من أحد ينكر عليهم حق الاعتكاف والاعتزال فى صوامع هادئة وأبراج عالية . ولكن الوحدة والعزلة ليستا هدفاً لذاتهما وإنما وسيلة للسمو . والشاعر الذى لا يستطيع أن ينظر إلى بعيد وينذر شعبه بما هو آت يكون شاذاً : فهو إما أنه ليس له برج

يشرف منه على آفاق الحياة الفسيحة وحينئذ ينبغى عليه أن يظل على الأرض يكدح مثل غيره وإما أنه ليس له عينان تبصران ، وعندئذ يجب عليه أن يختار مهنة أخرى غير الشعر .

ومما يبشر بالنهضة الأدبية فى البلاد العربية أن الكثيرين من الكتاب بدأوا مؤخراً يتكلمون عن مهمة الأدباء فى المجتمع ، بل عن «تجنيد الأدب» لتحرير الشعب وخدمتـــه . ولكن بقى علينا أن نميز بين الأديب بالمعنى الصحيح وبين الكاتب الذى ينقلب إلى موظف منفذ للأوامر أو بوق للدعاية . إن رسالة الأديب فى هذا العصر الحديث هى أن يعلم الناس كيف ينظرون إلى الطبيعة ويفهمون أسرارها وكيف يلاحظون الحوادث الاجتماعية ويدركون الروابط بينها ثم أن يغوص بهم فى أعماق النفس البشرية ويقربهم من معرفة أبناء جنسهم وأن يسمو بخيالهم حتى يستطيعوا تصور الحياة فى الماضى والمستقبل ويتوصلوا إلى انتزاع المثل الأعلى من صميم الواقع وأخيراً أن يبعث فيهم روح المغامرة والاقدام وحب العمل والنضال .

ومن المؤكد أن الأديب لا يؤثر فى الجمهور عن طريق الوعظ والنصيحة ، بل بأن يقدم له نماذج من الحياة تمثل آلام الناس وآمالهم وأعمالهم وطرائق تفكيرهم وكفاحهم ونظرتهم إلى الكون وعلاقاتهم بعضهم ببعض .

ولنضرب مثلا آخر ، نظرية « العلم للعلم » . فالعالم أيضاً يحتاج إلى حياة التأمل الهادئة وإلى الحرية التامة فى التفكير ، وهو لا يتوصل إلى المعرفة الصحيحة إلا عن طريق البحث النظرى المجرد . ولكن لو كانت رسالة العلم هى التأمل فى الكون لذات االتأمل لمـــا وجد العلم كما نعرفه اليوم . فان أبسط دراسة لتاريخ العلم تبين لنا ، كما يقول الأستاذ ( برنال ) « بأن الحاجات المـــادية كانت هى الدافع للاكتشافات والاختراعات العلمية وأن الأدوات المـــادية هى الوسائل الضرورية لاتمام هذه الاكتشافات والاختراعات » .

وقد نشأ العلم الحديث وتقدم بفضل تحقيقه لضرورات الحياة المـــادية . فهو الذى مكن الانسان من السيطرة على الطبيعة وساعده على مكافحة الأمراض وزيادة الانتاج وتوفير أسباب الرفاهية . وإليه يرجع الفضل فى تحرير البشر

من الضلال والأوهام والخوف . وفى الواقع قد أصبح البحث العلمى أداة فعالة لبناء حياة الأمم ولابد من الاعتماد عليه للقيام بالمشاريع الزراعية والصناعية ولتنظيم جهاز الدولة والمؤسسات الاجتماعية .

وقيمة العلم إنما تقاس بمقدار مساعدته لنا على الحياة . « فان الحياة ، كما قال ( نيتشه ) ، تأتى قبل المعرفة . والمعرفة التى تهمل الحياة وتقضى عليها إنما تفنى نفسها أيضاً » .

* * *

إن العلم يعتبر اليوم أهم عنصر فى الثقافة الحديثة . ولاشك فى أن أبرز أثر له هو تغييره لتفكير الانسان . فان طريقة البحث العلمى جعلتنا نؤمن بالعقل ولا نتقيد إلا بالواقع الذى تدركه الحواس ولا نقبل بشىء لا تؤيده التجربة . وتقتضى هذه الطريقة التحرر من العقائد الغيبية – السحرية ومن الأوهام والأحكام السابقة وهى تفرض علينا المشاهدة الموضوعية والملاحظة المضبوطة والقياس الدقيق والتجرد عن العواطف والتمسك بالحياد .

ثم إن التفكير العلمى يتطلب التعاون التام بين الباحثين وتنظيم الجهود المشتركة وتوحيدها وبذلك فانه يمكن أن يصبح وسيلة فعالة للتضامن الاجتماعى والتفاهم بين الشعوب .

ولا حاجة هنا إلى تعداد النتائج الباهرة التى توصل إليها التفكير العلمى . فان الحضارة الحديثة باكتشافاتها ومخترعاتها وتقدمها فى الزراعة والصناعة والتجارة وفى التنظيم السياسى والاجتماعى والسيطرة العسكرية – كلها يعود الفضل فيها ، بالدرجة الأولى ، إلى هذا التفكير العلمى . لا شك فى أن هناك مشاكل كثيرة لم ينجح التفكير العلمى بعد فى إيجاد الحلول اللازمة لها . ولا جدال فى أن الحضارة الحديثة قد جلبت كثيراً من الشرور والويلات على البشرية وخلقت مشاكل جديدة على جانب كبير من الخطورة ، وما زالت تهدد العالم بأعظم الكوارث والمحن . ولكن هل نستطيع الادعاء بأن التفكير القديم غير العلمى كان أخف شراً أو أكثر مقدرة على حل مشاكل البشر ؟ ثم أليس السبب فى استمرار الشرور المتوارثة وتعاقب الأزمات الجديدة إنما هو التمسك بطرائق



obeikandl.com

التفكير القديمة وعدم تغلغل التفكير العلمى الحديث بين جميع الطبقات وفى كل المجتمعات ؟ وبينما يكتفى خصوم التفكير العلمى بإرجاع أسباب الفساد فى العالم إلى « طبيعة الانسان الشريرة » ويعترفون هكذا بعجزهم عن معالجتها فان أنصار هــذا التفكير يعللون الفساد بأنه ناتج عن الأوضاع الاجتماعية والآراء المشوهة ويعملون على إزالته بإصلاح أنظمة المجتمع ونشر المعرفة .

ومهما كان الأمر فان الحضارة الحديثة هى التى تسيطر اليوم على العالم ولا سبيل لأى شعب فى أن يحافظ على كيانه دون مجاراة هذه الحضارة ، وقبل كل شىء دون الأخذ بالصناعة الآلية التى تقوم عليها ، وهذه الصناعة الآلية تفرض علينا اقتباس الثقافة الحديثة واتباع التفكير العلمى الذى تستند إليه . ولا يمكننا أن نتقدم فى الصناعة الآلية ونستفيد منها فى زيادة الانتاج وتهيئة وسائل القوة الضرورية لبقائنا دون نشر هــذه الثقافة بين الشعب على أكبر مقياس ممكن . فانه لا يكفى أن تتبنى الصفوة الممتازة هذه الثقافة بل لابد أيضاً من أن تكتسب الجماهير الكادحة ، المنتجة من عمال وفلاحين قسطاً كافياً من الثقافة العلمية والفنية . إذ لا فائدة من تجهيز الفلاحين بالآلات الزراعية إذا لم يتعلموا قبل ذلك كيف يحسنون استخدامها والمحافظة عليها . كذلك لا يستطيع العامل أن يتقن استخدام الآلات الحديثة وأن يستفيد منها إلى أقصى حد ممكن إلا إذا صار يفكر تفكيراً ميكانيكياً ويعرف تركيب الآلات ويتصف بما تتطلبه من سرعة الخاطر والاستجابة والانتباه الدقيق ، المتواصل . ثم إذا لاحظنا بأن الآلات فى الصناعة الحديثة تزداد كل يوم تعقيداً ودقــة وأننا سنحتاج فى المستقبل إلى عمال لا يقتصرون على استخدام الآلات بل يصنعونها أيضاً ، ندرك ضرورة التوسع فى نشر الثقافة الفنية القائمة على معرفة الرياضيات والفيزياء والكيمياء والميكانيك وعلى التفكير العلمى المجرد . كذلك لا فائدة من أن يصبح العامل قادراً على استخدام آلة تعادل قوتهــا ( ٢٤٠ ) من العبيد إذا ظل هو نفسه خاملا ، بليداً ، عاجزاً عن التفكير الذاتى وعن النقد ، لا يستطيع تمييز الأخبار الصحيحة من الكاذبة وينقاد إلى الايحاء والتضليل ولا يسيطر على أهوائه ونزعاته البدائية . ألا يشبه حينئذ الطفل الذى

تسلمه قضيباً من « الديناميت » ؟ فإن ذلك لا يكسبه قوة وسطوة وإنما يزيد فى الأخطار التى تنجم عن عدم إدراكه للمسؤولية .

وتتجلى لنا ضرورة تعميم الثقافة إذا فكرنا مثلا فى مشاريع العناية بالصحة العامة . فانه لا يكفى تهيئة العدد اللازم من الأطباء والمستشفيات والأدوية بل لابد من تنوير أفكار الجماهير وتعليمها تركيب جسم الانسان ووظائف أعضائه وكيفية انتقال الأمراض وطرق الوقاية منها . وتزداد الحاجة إلى الثقافة الشعبية عندما ننتقل إلى تكوين المواطنين الصالحين الذين يعرفون بنيان الدولة وجهاز الحكومة والعلاقات الاجتماعية وحقوق الأفراد وواجباتهم ويدركون معنى المسؤولية والتضامن والتعاون .

وفوق كل ذلك فان الصفوة الممتازة لا يمكنها أن تنمى ثقافتها العالية إلا إذا ظلت متصلة بالمجتمع الذى تعيش فيه وتستمد منه القوى المتجددة والعناصر اللازمة تؤثر فيه وتتأثر به . بل نستطيع القول بأن الثقافة الشعبية هى الأساس الذى تقوم عليه ثقافة الصفوة الممتازة وبدون هذا الأساس تبقى الثقافة العالية معلقة فى الهواء فتنقطع عن جذورها وتفقد الحياة . وكلما اتسعت الثقافة الشعبية ازدادت العوامل المساعدة على تقدم الصفوة الممتازة .

• • •

إن الصفوة الممتازة من المثقفين ورجال الفكر تنتظرها مهمة عظيمة وخطيرة فى المجتمع العربى . فعليها أن تقوم باحياء تراثنا الثقافى الذى يجب أن نبنى على أساسه صرح ثقافتنا فى المستقبل . ومن الواضح أنه لابد لها من انتقاء الأعمدة القوية والعناصر المتينة التى تصلح للبناء الجديد . ثم إنه لا غنى لها عن اقتباس الثقافة الحديثة التى تلزمنا لمسايرة حاجات هـــذا العصر . ولاجدال فى أن أهم ما نحتاج إليه هو التفكير العلمى الحديث الذى يجب أن يسيطر على ثقافتنا . كما ينبغى أن نطلع على التيارات الفكرية فى هذا العصر وأن ندرك العوامل المؤثرة فى المجتمع الحاضر . ومن الضرورى أن تتوصل الصفوة الممتازة إلى الوحدة الفكرية والشعورية والارادية . على أن الوحدة لا تتنافى مع التنوع فى الصور والكثرة فى ألوان التعبير ، بل على العكس فان التنوع لازم للنمو

والازدهار والقوة ، على شرط أن لا يتجاوز حداً معيناً يحول دون الانسجام . ويجب على الصفوة الممتازة أن تشعر بالمسئولية تجاه المجتمع وأن تكون على اتصال وثيق معه فتتولى تنوير الرأى العام وتوجيهه وقيادته . وعليها أن تتذكر دوماً بأن البشر لا يستطيعون التغلب على مشاكل الحياة فى جميع مظاهرها إلا إذا أصبحت لديهم فكرة واضحة عن الكون ونظرة معينة إلى الحياة تتلاءم مع معلوماتهم وتطمئن إليها عقولهم وتوحد بين آرائهم وعواطفهم وميولهم ويزول معها الاختلاف بين الروح والعقل والاصطدام بين الحياة والفكر والتضارب بين الضرورة والاختيار .

ومهمة النخبة المثقفة ورجال الفكر فى كل أمة وكل عصر إنما هى تكوين هذه النظرة الكلية ، الشاملة ، الموجهة . . .

محمد كامل عياد